قراءة في تجربة الفنان التشكيلي موسى عمر

المنجز الفني نظم جمالي كوني للمكتسب

دلال صماري

بقلم الباحثة والتشكيلية التونسية

إن شفاعة الفن التشكيلي ليست كامنة فقط في التصالح مع الذات والآخر، بل تكمن في طاقته على مخاطبة الكوني، على أن يكثف على سطحه وفي جوفه جماع التجربة الإنسانية. إنه يفسح المجال لما لم تفصح عنه اللغة وبهذا المعنى يسعنا القول أن المنجز الفني متنفس ومأوى الإنسان ولا يمكن بأي حال من الأحوال أن يكون معاديا له. الأثر الفني مسكن ومساحة شاسعة تتجلى من خلالها الذات وتكثّف فيها كدحها نحوها، ومنها نحو الكون.

كدح الفنان لنظم الجمال، وتجميع ما قد تبدد، حيث يميل الفنان العماني موسى عمر من خلال تجربته الفنية التي اعتبرها مختبرا ليس فقط لإيجاد أسلوب فني مختلف وإنما مختبر للنفس ومدى إمكانياتها على بلوغ أقاصي الذاكرة وتمثلاتها. التشكيل لديه ميل غريزي إلى الاستعارة والى إستكشاف المتشابهات في هذا العالم، هو لا يهدف بذلك إلى عقد المقارنات، فكل

مقارنة فعل تراتب وهو لا يهدف إلى الانتقاص من خصوصية أي حدث أو ذكرى أو ثقافة... وإنما يبرز من خلال أعماله جليا سعيه إلى استكشاف تلك المقابلات التي يشكّل مجموعها العام البرهان على كونية الوجود غير القابل للتجزئة. يخاطب الفنان تلك الكونية انطلاقا من الخصوصية التي لا تنفتح بالضرورة على استثناء يوازي بين مرمى الكوني والمحلي.

من هنا يمزج الفنان بين الذاتي والموضوعي، فالأثر الفني لديه يؤلف بحميمية بين الأشياء، وهذه الألفة نتاج لكدحه نحو صياغة تلك التراكيب والتوليف بين عناصر الأثر ومكوناته بدءا بصياغة المحمل ورموزه وعلاماته التي يحطّم أسوار تواجدها في ثقافة وإرث بعينه ليطلقها للعالم بصياغة عالمة.

ولعلّ إعادة صياغتها أصل النطق والبوح الذي يختار له الفنان لغة

القماش(الخيش) وإعادة تدويره وتكوينه، فيلتحم الرمز والعلامة واللون بالمحمل ليغدوا وحدة واحدة وينتفي ما بينهم من تناقض غير مؤهل نحو آخر متناسق، ليواجهوا معا المتلقي القادم من حضارات وثقافات مختلفة. يكون بذلك الأثر متسلحا بكل الآليات التي تجعله مسرحا لتقبل قراءات وتأويلات مختلفة، وهذا ما يجعل الفنان قادرًا من خلال منجزه على تأسيس مادة حيّة قادرة على النطق بكل اللغات.

من أين تأتي هذه الجرأة الهادرة للأثر؟

تأتي جرأة الأثر على مخاطبة الكون بوصفه لغزا، مصدره ما يدور في ذهن وذاكرة فنان منذ زمن ولا يزال، هذا الفنان القادر على توظيف مكنوناته لخدمة أغراض جمالية...هي أصوات داخلية تنبئ بإيقاعات، وهذه المميزات الإيقاعية منشّطات الذاكرة التي لا تأتي على حساب المضمون، فقد تختلط داخل الأثر الفني للفنان موسى عمر الإيقاعات الخطيّة واللونيّة والملمسيّة إلا أن معانيها تتمايز بدقة استثنائية. وفيما انتظام العلامات والرموز يطمئن إذ باللون وتقاطعات المحمل وملامسه يصدم، فالمنجز الفني لديه مساحة تطاوع على اشتقاق علاقات جديدة في كل مرة بين المحمل ومكونات الأثر من خلال الإضافات التي يقوم بها الفنان من أقمشة بيضاء ناصعة على قطع الخيش المتراكبة والمركبة، إنها مجال لتجلي طاقة الشفافية وقدرة الفنان على استدرار تكوينات محامله ومنها تراكيبه. حيث شهدنا حتى تغيرات مرحلية من فترة قميص الأحلام وحتى أخر أعماله اليوم، تغيرات تدريجية بدأت بنظرته للمحمل الذي أخذ اتجاهات مختلفة، ومن ثمة نقاء واختزال أكثر للعلامات والرموز وحتى للألوان. مؤخرا أصبع يلعب على ثنائية الأصلي والمطلي لخامة الخيش وتطعيمه بقماش أبيض شفاف في بعض المناطق بحيث تأخذ مساحاته الملونة حيزا أشسع وبلون أحادي. وامتدت بذلك تعبيراته على نطاق أوسع وخلفياته أصبحت أكثر تنوعًا من حيث نوع الخامة وملمسها ولونها، أضف إلى ذلك أنه أخذ يراوح بين المحمل الخيش ومحمل القماش الكلاسيكي ومحاولة إيجاد طريقة دمج بينهما بحيث تخلق عملية الكولاج هذه نظرة جديدة وتصور مبتكر لدور محمل التقليدي فيصبح جزءا لا يتجزأ من الأثر المنجز سلفا.

يحاول الفنان موسى عمر في كل مجموعة جديدة محاورة محامله وأدواته وألوانه وعلاماته... في عدد لا محدود من الآثار الفنية، هو يتفحّص أسلوبه بين الفترة والأخرى لا يستكين ليخاطب المتلقي في كل مرة بنمط جديد ولكنه يدلّ على المعطى الأساسي الذي ميّز تجربة الفنان.

يتعاطى الفنان مع أثاره الفنية بأسلوب دقيق وتركيز بالغ ومحاورة دائمة حيث تمر صناعة المنجز الفني لديه بأطوار عديدة يأتي في المقام الأول الجهد التمهيدي الذي يقوم على تجهيز الإطار العام للأثر(المحمل) بقماشة الخيش بحيث يعمل على حسن استغلالها وتطويعها بما يتلائم وأفكاره الجمالية. بعد ذلك يأتي الجهد الإدراكي لما لديه في صلب ذاكرته من عناصر تكوين مخزنة، ومدى كونيتها وقدرتها على تلبية حاجياته الجمالية. ثم تأتي عملية النظم الجمالي لتلك العناصر بما يتلاءم وتلك الحاجة، وهنا يوظّف موسى عمر كل ما خزّنته ذاكرته وما اكتسبه من خبرات وما يعتمل داخله من أحاسيس وأفكار في عمليةّ النظم والتوزيع،

على أن هذه العملية تتطلب مراحل متواترة يحوم من خلالها حول الأثر من كل جوانبه متفاعلا مع كل ما يتيحه من وضعيات خاصة غير المنتظرة.
عندما يستوي النظم الأخير يكتسب الأثر طاقته الجمالية ويصبح جاهزا للتداول والقراءة والتأويل والبقاء فيما بعد في ذهن المتلقي بالصورة التي يعيد هو نظمها.
هذه المرحلية في بناء الأثر الفني لدى موسى عمر لا تلغي إيمانه بطواعية اللون والشكل، فأثناء انجاز الأثر يحدث التحوّل العجائبي فينحرف من حين لآخر ما كان مبرمجا لينساق إلى ذلك التحوّل الذي فرضته اللحظة والإحساس بها. بمعنى تولد بعض العلامات وتفاعلات اللون والمحمل من فعل الرسم لحظة إقامة الفنان داخله، فتراه يغير من اتجاه وضعيّة المحمل ويتحوّل بمقتضاها اتجاه العمل برمته. حيث يتبادل وعناصر تكوين الأثر الأفكار وينساق من حين لآخر لسلطانها لا ضرر في ذلك.
هو ليس خاضعا للنموذج والمقتدي به بل هو محلّ خطوط وألوان هو المتفاعل مع تسلسل إنتاج الأثر وكل ما يترتب عنه، هو الذي يقضي أغلب ساعات اليوم يرسم ليجعل العبثي ممكن التحقيق؟ أو للحفاظ على لغزه؟ ربما هو ذلك الذي يضع العالم بين يديه ملفا من العلامات والرموز والخامات وهو الذي يمتلك حاسة بصر لقرائتها ويؤلف بناء على تلك القراءة وذلك الملّف الأثر المخبأ.
منجزه الفني مخبأ للاستعادة وليس للإستذكار هو تماشي للماضي مع الحاضر بهدف مخاطبة الجمال لكل زمان ومكان.
لوحات موسى عمر خلقت لتزيد حسب رأيي من التساؤل عما لم يفصح عنه مخزونات ذاكرة الإنسان، لأنه فعل يتجلى كقيمة ومتاهة جمالية ملغزة، ربما لأنه يلمح فقط للمكتسب بلمحات خاطفة، ولكنها بالمقابل تختطف تساؤلاتنا وتحتفظ بها للأبد أو على الأقل مدة وقوفنا أمامها ومحاورتها.
هي تهدف إلى حصد الأسئلة بعد إستثارتها دون أن تقدم أجوبة.
يقع إشباع رغبة المتلقي جزئيا هنا عبر استفزاه ليطرح الأسئلة التي يصبح بمقتضاها الأثر الفني برسم الإيجار، بحيث يستطيع أي متلق أن يستأجره ويسكنه لحظة الوقوف أمامه ليتخلى داخله على ما يعلّقه عادة على المظاهر من مصداقية وجديّة- مبتورة عن دلالاتها المخصومة، ولهذا فهو مسخر لخدمة أي من الدلالات بحيث تصبح المظاهر تغيّر الواحدة منها الأخرى بتغير المتلقي في كلّ مترابط بصريا. وما السكن داخل الأثر سوى تعريض حاسة البصر لذلك التداخل وتلك الشمولية وهذا ما يمكن لنا تسميته الشعور الجمالي بهذا العالم المشطور والمتصارع حول كل ما هو لا إنساني.
أثر موسى عمر التشكيلي ما هو إلا البشارة بذاكرة تنتظر من يحققها، ذاكرة تستوعب كل صورة من صور الماضي في سياق استمراريتها، هو تمهيد الطريق أمام تلك الذاكرة... لما «كان» ولما هو «الآن» حيث يقول بريشت في هذا السياق:
هذا «الآن» النابع من «الماقبل»

والذي سوف يفضي إلى «المابعد»
والذي صار يحيط بأشياء كثيرة أخرى
اذ ذاك يحتل المشاهد مكانه لا في مسرحك وحده
وإنما في قلب العالم كذلك ١
موسى عمر نجح حسب رأيي من خلال منجزه الفني في التوّصل تشكيليا إلى صورة قابلة لان تصير «أنا راهنا» من خلال ما «كان» ومماثلا حيث وفر لها السياق المناسب، وهذا السياق يحلّ محل الأثر الفني في الزمان، لا في زمانه الأصلي وإنما في زمن التشكيل. سياق يحترم الذاكرة التي يسعى بدوره إلى تنشيطها وإعطائها أبعاد الحاضر وانتظارات الآتي. انتظارات مفتوحة على احتمالات وتأويلات متعددة وهذا ما يعطي الأثر الفني طاقات تعبيرية أكبر وشحنة حسيّة عميقة، تعطي الممارسة التشكيلية غموضا ومراوغة لأنها إشارات تخاطب لا المنعكسات وحدها وإنما المخيلّة أيضا.

١- برتولد بريشت، قصائد، المجلد الرابع، منشورات «لارش» باريس١٩٦٦